التهيئة العمرانية بمدينة تلمسان من المرابطين إلى بداية الاحتلال الفرنسي (دراسة ميدانية)

د. سيدي محمد نقادي
جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان–الجزائر

ملخص

إن هذا المقال هو نتيجة لعمل ميداني حول مدينة تلمسان، نضج خلال مدة طويلة من الزمن. ويبقى الهدف هو تبيان بأن :

1 – النسيج الحضري لـ "مدينة" مثل تلمسان يعتبر هو نتيجة التطابق بين الوظائف المختلفة التي تجعل تجمع سكاني يتحول إلى مدينة، حيث العلاقات بين سكانها تعكس الرغبة في العيش معا. إن هذه الحالة من علاقات بين السكان ورغبة هؤلاء في العيش معا جعلت مدينة تلمسان تساهم بفعالية في تكوين المجتمع المدني.

2 – إن تصميم المدينة الأصلي يهدف إلى الاستجابة إلى مطالب الحياة اليومية للفرد، الاقتصادية منها والثقافية وهذا ما نلاحظه عموما في المدينة المغاربية.

3 – إن المدينة ليست عبارة عن جمع مجموعة من التجمعات أو الأحياء وهذا بحكم الضرورة التي تستوجب عليهم العيش معا من أجل خلق علاقات مصلحية ؛ إنما المدينة هي في الأساس إنعكاس لمستوى حضاري وهذا ما نلاحظه في مدينة تلمسان.

الكلمات الدالة: عمران ، مدينة ، التطور، مجتمع مدني.

مقدمة

تسعى هذه الدراسة الميدانية حول التهيئة العمرانية لمدينة تلمسان خلال الفترة التاريخية الممتدة من تأسيس أغادير سنة 1079 م على يد يوسف بن تاشفين المرابطي إلى السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي للمدينة إلى تحقيق ثلاثة أهداف أساسية هي:

1 - توضيح سياسة التعمير المعتمدة في مدينة تلمسان ومتابعة تطور العمارة عبر الزمان

2 - إبراز مكانة الجانب الروحي في هيكلة العمارة

3 - التأكيد على أن الهندسة المعمارية هي في حدّ ذاتها قيمة اجتماعية للهندسة المعمارية.

لتحقيق هذه الأهداف ينبغي علينا أن ضبط مفهوم الهندسة المعمارية: فهي تفيد عموما، فن البناء والإبداع، وخصوصا فهي تعبير خالص لمستوى حضاري للمجتمع الذي تبناها. لقد طورت كل حضارة نموذجا معماريا ميزها عن الحضارات المجاورة، ومن خلال مقاربة تحليلية ونقدية، مقارنة لفنّ العمارة يمكن تحديد المستوى الحضاري الذي حققته الجماعة المستغلة للنموذج الذي نحن بصدد عرضه. فإن تمكنّا خلال عرضنا من إثبات أن للقيم الاجتماعية دور في تحديد ملامح العمارة، تصير سياسة التعمير مرجعا قيميا وبالتالي تصير الهندسة المعمارية الإسلامية من الجماليات المتوجة لفن الحياة.

أولا: التصميم العمراني لمدينة تلمسان :

يتم تقديم التصميم العمراني لمدينة تلمسان من خلال :

1 - الموقع وأهميته
2 - تطور النيسج العمراني
3 - مميزات النسيج العمراني

نقدم من خلال الشكل (1) مخطط توضيحي يبرز مقطع شمال جنوب المدينة في سنة 806 م.

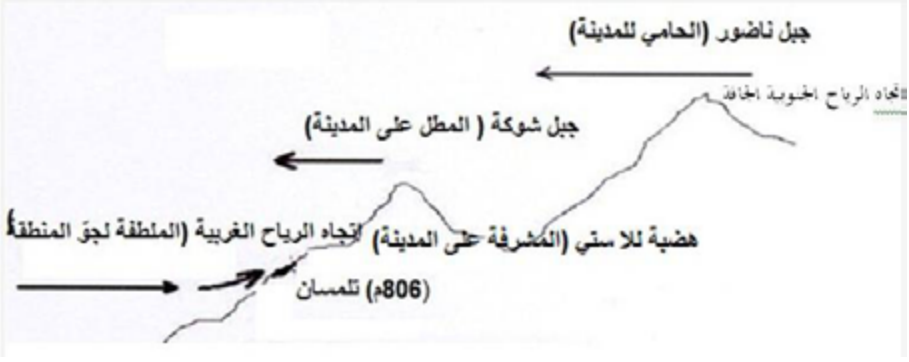

الشكل (1): مقطع شمال/ جنوب يبرز التضاريس

1. موقع المدينة وأهميته

تتجلى أهمية المدينة في كونها تتربع على السفح الشمالي من جبال سلسلة الأطلس التلّي، يرتفع موقعها بثماني مائة وستة أمتار (806 م) على مستوى سطح البحر. يحميها جبل شوكة، الذي تتكئ عليه من الرياح الجافة والحارة المحملة بالرمال الناتجة عن المناطق الجنوبية والسهبية، وفي الوقت نفسه فهي تستقبل الرياح الغربية المحملة بالرطوبة التي تلطف الجوّ وتضمن لها نسبة

معتبرة من التساقط (بين 600 - 700 مم/سنويا) وهي نسبة كافية لضمان غطاء نباتي كثيف ومتنوع مكّن السهل الذي تشرف عليه المدينة من إنتاج وافر للعديد من المحاصيل. ومن ناحية أخرى فإن الصخور المكونة للمنطقة (صخور مسامية) سمحت بتسرب المياه في جوف الأرض، فكثرت العيون والينابيع حول وداخل المدينة وفّرت هذه الظاهرة منسوبا معتبرا من المياه الصالحة للشرب وسقي البساتين، كما أن موقعها المحصن طبيعيا، رفع من قدراتها الدفاعية مما جعلها تصمد أمام حصار المرينيين لأزيد من ثماني سنين (من 1299إلى 1307)، وهو أطول حصار عرفته مدينة متوسطية خلال العصور الوسطى.[1]

إن هذه الوضعية المتميزة جعلت زوّارها يعجبون بموقعها الفريد، وبمناخها اللطيف وهوائها النقي ومائها العذب؛ إنها المدينة التي تسرّ الناظر وتشرح صدره وترفع قدره. إنها العروس على سفح جبل داخل صدفة مخضرة... نهيك عن المنظوم والمنثور فيها.[2]

2. تطور النسيج العمراني : (من الفترة المرابطية إلى بداية الاستعمار الفرنسي)

يوضح لنا الشكل (2) أهم فترات تعمير مدينة تلمسان

الشكل (2): مخطط يبرز فترات تعمير المدينة (تقرارت/تلمسان)

– عند دخول يوسف بن تاشفين المرابطي أقادير سنة 1079 م، ونظرا للعداء

1 - بن خلدون، يحي. بغية الرواد. ج 1، ص 125.
- انظر أيضا: تاريخ بني زيان، ملوك تلمسان لمحمد بن عبد الجليل التنسي ص 133.

2 - نحيل القارئ إلى قصائد الشاعر الفيلسوف محمد بن عمر بن خميس، ولسان الدين بن الخطيب، وما نظمه ابن مرزوق الكفيف، وأبي جمعة التلالسي، شاعر وطبيب أبي حمو موسى.

المزمن بين قبائل صنهاجة وزناتة، تبنى ابن تاشفين في الجهة الجنوبية الغربية من أقادير حيا سكنيا يأوي فيه أشراف المرابطين من قبيل صنهاجة. وأطلق على هذا الحي السكني الجديد اسم "تاقرارت" الذي سيكون نواة لمدينة تلمسان. الرقعة (I) من المخطط.

يمكن القول على هذا المستوى بأن مدينة تلمسان ستنشأ من حيّ سكني ولم تكن النشأة من تصور عام لهيكلة إجمالية للمدينة. تطور الحي السكني بسرعة إلى حي تجاري استحوذ على مقر الولاية ابتداء من الفترة المرابطية. الرقعة (II) من المخطط

– في عهد الموحدين (1147 - 1235 م)، توسعت رقعة المدينة من جهة الجنوب الشرقي مع احتفاظها بمقر الولاية. وعند ظهور خطر بني غانية الميورقيين الموالين للمرابطين، أعيد تحصين المدينة حتى صارت على حدّ تعبير عبد الرحمن بن خلدون "أمنع أمصار المغرب". أول مرة سميت فيه تلمسان بهذا الإسم كان في نهاية عهد الموحدين. الرقعة (III) من المخطط.

– مع تأسيس الدولة الزيانية سنة 1236م، رفع يغمراسن من شأن المدينة باتخاذها عاصمة لدولته في المغرب الأوسط، لذا وسع رقعتها من الناحية الشرقية تحسبا لاستقبال العائلات الأندلسية (تعمير المنطقة الموجودة بين المشور وحي الرحيبة). الرقعة (IV) من المخطط

– في سنة 1286م قام السلطان عثمان بن يغمراسن بعقد معاهدة تجارية مع مملكة أرغون تسمح بتشييد القيسارية بالحي التجاري المحاذي لمركز المدينة وغير بعيد عن المسجد الكبير. هذه العملية حفزت الجمهوريات المسيحية على التنافس على تشييد فنادق أخرى داخل المدينة.[3]

– ابتداء من 1307 م وبعد الحصار الطويل فرضت تلمسان نفسها كأهم مركز تجاري في طريق الذهب، مع زيادة ازدهار المدينة اقتصاديا وعمرانيا، إذْ قام أبو حمو موسى الأول بالتهيئة العمرانية للجهة الغربية من المدينة مع تخصيص الجزء الشمالي لقبائل الرحل، أما الجزء الجنوبي فقدمه للقبائل المستقرة من الجهات الشرقية للبلاد، وبالجزء الجنوبي شيّد أولى مدارس تلمسان.

– في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي، ولما نجح البرتغاليون في تغيير طريقٍ الذهب نحو المحيط الأطلسي، تعطل نشاط ساحة القوافل بمركز المدينة. تحتم إذاً على السلطة المركزية إيجاد حل لإنعاش اقتصاد المدينة المتضرر من نضوب معين الطريق الصحراوي. فالحل الذي اعتمدته السلطة تجسد في تعمير ساحة القوافل بالجالية اليهودية : فتمّ للمدينة استقطاب الأطباء (حتى صارت تلمسان عاصمة الطب بالمغرب الكبير)، والصناع المهرة في الحلي وفي ترصيع المعادن.

3 - Atallah, Dhina. Le royaume Abdalwadide, p.206.

فإن تمكنت المدينة نسبيا من الحفاظ عن نشاطها الاقتصادي، فإنها المدينة الوحيدة في الغرب الإسلامي التي سمحت للجالية اليهودية من السكن بمركزها.
ويمكن الإشارة على هذا المستوى أن الشرط الوحيد الذي وضع لهيكلة الحي اليهودي كمُنَ في الظاهر في تطبيق نص فقهي مفاده أن منازل اليهود تكون أقل ارتفاعا من مساكن المسلمين (الإسلام يعلو ولا يعلى عليه). فتحايل البناؤون اليهود – وعلى الرغم من أن الحي يوجد في منطقة يرتفع فيها المستوى العلوي للمياه الجوفية إلى أن يقترب من السطح (Le niveau supérieur de la nappe phréatique est à moins de 3m) من تشييد حيّهم باحترام قواعد البناء بالنسبة لحجم الغرف من حيث ارتفاعها مع تجنب تسرب للمياه إلى المنازل. هو أمر لا زال يثير في الوقت الراهن حيرة المهندسين المعماريين.
– في أواسط القرن السادس عشر، يكتمل النسيج العمراني للمدينة من قبل العثمانيين الذين أعادوا استغلال الجزء الشمال الغربي من المدينة (حي باب الحديد) مع إعادة الإعتبار لضواحي المدينة (الحرطون، كدية العشاق وغرس الباي)، إلا أن المدينة بفقدانها مكانتها السياسية، ستضيّع أيضا مكانتها الاقتصادية، نتيجة اهتمام السلطة بأمور البحر، وبالتالي لم يطرأ الجديد في النسيج العمراني. رغم هذا ستحتفظ المدينة بمكانتها الثقافية.
عند احتلال المدينة سنة 1842، أدخلت السلطات العسكرية تغييرات جدرية على عمران تلمسان مستهدفة مقوماتها الأمية، فإخترقت الأحياء السكنية ودمرت المعالم الحضارية من مدارس ومساجد بدعوى تحديث النسيج العمراني. أما الأمر الذي أدّى إلى تحطيم البنية التحتية للتهيئة العمرانية القديمة كل هذا تجسد في سياسة توسيع الشوارع وسياسة نزع الملكية، من الإسكان[4]. نتج عن كل هذا زعزعة نسقية للمظهر العمراني، وانمحت بالتالي وظيفتا اتخاذ القرار والاقتصاد، ومن ثم صارت المدينة تدريجيا لا تفي بحاجات سكانها الذين تخلوا عنها فتسارع تدهورها.

3 . خصوصيات التعمير بمدينة تلمسان

– هي المدينة المغربية الوحيدة التي تكونت انطلاقا من حي سكني، رغم ذلك تمكنت نتيجة موقعها ونشاطها الاقتصادي من استكمال نمو عمرانها بكيفية مميزة. وكمثال عن ذلك لم يكن المسجد الكبير يتوسط المدينة، لكن التعمير التدريجي جعل منه نقلة محورية في مختلف أنشطة المدينة بمركز المدينة.
– المدينة المتوسطية التي تعرضت مرارا إلى الغزو والمحاصرة، وعدّ ابن مرزوق الخطيب في أواسط القرن الرابع عشر ثمانية وعشرين حصارا ومع نهاية القرن

4 - Lecoq, André. Tlemcen ville Française p. 158.

الخامس عشر وصل عدد الحصارات إلى ستة وثلاثين أما في عهد الأمير عبد القادر ففاق العدد الأربعين حصارا.

– لا تتجاوز المساحة الكلية للمدينة ثلاثة وأربعين هكتارا، فهي أصغر عاصمة بالغرب الإسلامي، إلا أن عدد سكانها مطلع القرن السادس عشر زاد عن مائة ألف نسمة؛ وبتعبير آخر نسبة الكثافة بالمنازل كانت عالية جداً...دون الشعور بالاكتظاظ.

– هي المدينة الوحيدة التي سمحت للجالية اليهودية من الاستقرار بمركز المدينة.[5]

إن أهمية الموقع وحيوية نشاطها التجاري والحرفي تسببا لها في محن كثيرة وعرضاها لمخاطر كادت أن تزيلها من الخريطة السياسية.

–كل هذه الخصائص التي ميزتها عن المدن المغربية، يُبْطل كل المحاولات الساعية في مقارنة نسيجها مع نسيج المدن والعواصم المغربية الأخرى.

ثانيا: هيكلة المدينة وتنظيمها الوظيفي

إن التفسير الوظيفي للنسيج العمراني لمدينة تلمسان نقدمه من خلال الوظائف الأساسية الثلاثة وهي وظيفية اتخاذ القرارات ووظيفة النشاط التجاري والحرفي ووظيفة الإسكان. [6]

1. **وظيفة اتخاذ القرارات:** تعتبر هذه الوظيفة مصدر السلطة وفي الحي المركزي للمدينة يوجد مقر السلطة المركزية أو اللامركزية بالإضافة إلى المسجد الجامع ومقر القاضي.

2. **وظيفة النشاط التجاري والحرفي:** إن هذا النشاط يحيط بالحي المركزي وينقسم إلى جزأين، الأول يُحاذي الحي المركزي، يتكون من أسواق عمومية وفنادق خاصة بالأجانب. ويتكون الجزء الثاني ضم الحرفيين. ونتيجة محاذاته للحي السكني فهو يحتوي أيضا على أزقة غير نافذة خصصت للسكن.وعلى هذا الأساس عُدَّ هذا الجزء بحيّ انتقاليا.

3. **وظيفة الإسكان:** يحيط الحي السكني بالحي الحرفي ويعد في مجمله أوسع الأحياء الثلاث. ويتوزع الحي السكني إلى حارات هي بمثابة فضاءات تتواجد فيها الخدمات الأساسية: الحمام والفران والمسجد وبعض الدكاكين. كل حارة تشرف على عدد من الدروب ومن الأزقة النافذة وغير النافذة.

---

5 - يشير التنسي في كتابه ملوك تلميسان إلى بناء سور المشور سنة 1446م من قِبل السلطان أحمد العاقل لكنه لم يربطه بقرار السلطان نفسه بتمكين الجالية اليهودية من الاستقرار بساحة القوافل

6 - المدينة الإسلامية، تأليف جماعي، ص 124.

الشكل(3) مخطط من انجاز الباحث يضبط مواقع الحرف (النصف الأول من القرن

نستخلص مما سبق ما يلي:

1. طبقت مدينة تلمسان وبداية العهد الزياني الهيكلة التي وضعها المعماري اليوناني هيبوداموس الميلاني Hippodamus بداية القرن الخامس قبل الميلاد بمدينة هليكارناس. لقد تم تقسيم المدينة إلى ثلاث أحياء بارزة، فاز كل حي بوظيفة معينة.

2. تخلى النموذج التلمساني عن الشوارع المخترقة للمدينة والمتقاطعة في مركزها، لعدم نجاعتها بالنسبة لمدينة مهددة باستمرار.

ومما يلاحظ أيضا على هيكلة المدينة، أن السور المحيط بها ليس له وظيفة دفاعية فقط، بل هو أيضا الحيز الذي يفصل المدينة عن أحوازها المباشرة (وهو الحدّ الفضائي للجهة التلمسانية في الوقت نفسه)؛ كما يرسمأيضا حدود الحزام الصناعي للمدينة، لا سيما تلك الصناعات الملوثة بضجيجها أو غبارها أو روائحها أو أحجامها.لم تهتد المدن الصناعية الغربية لذلك إلاّ خلال القرن التاسع عشر.

ب - الزخارف الجدارية ورمزيتها

إذا صحّ القول بأن واجهات المنازل والجدران الخارجية خالية من النوافذ فهي ليست خالية تماما من الزخارف التي لم توضع من أجل تجميل الجدران أو تنميقها، هي في واقع الأمر إشارات وضعت بطريقة ذكية، تنبه المار بأنه يقترب من حي سكني. لقد اختير مكانها بزوايا مميزة (Angles privilégiés)، إذْ بإمكان كل شخص عاد إنْ كان ينظر أمامه، يقع نظره على هذه الزخارف عفوياً. وحتى لا يحدث التباس للمار اصطلح على وضع هذه الزخارف حيث يشير اتجاه اليمين إلى الحي السكني، ويشير الاتجاه نحو اليسار إلى مركز المدينة، علما بأن الاصطلاح خضع للنص القرآني (أصحاب اليمين).

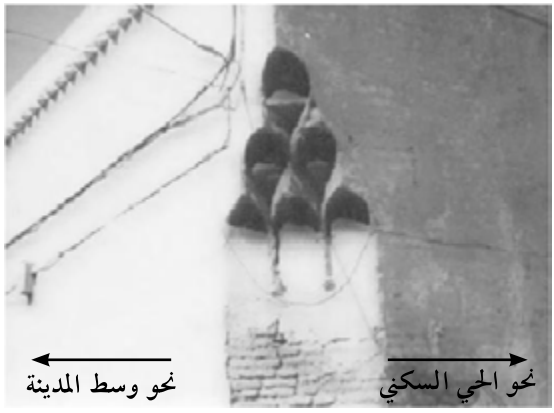

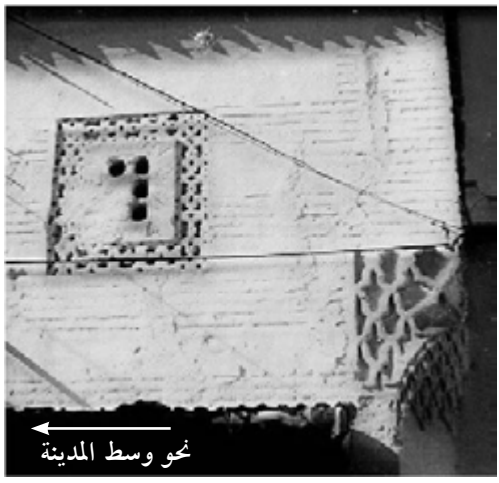

الصورة (1) نماذج أخرى مأخوذة من مناطقة متفرقة من المدينة المرابطية وكلها اعتمدت الاتجاه المصطلح عليه

الصورة (2) نماذج أخرى تحمل رمزية الأمن وحراسة الأزقة ليلا : قوس الإضاءة

قوس رافد، تعلوه كوة الإضاءة، إشارة إلى حرص الجماعة على ضمان الأمن ليلا بالحراسة وإضاءة الأزقة. في النموذج المقدم، يوكل أحد المنازل لمراقبة الإضاءة الليلية. (النموذج الحجري الوحيد بالمدينة) أما النماذج العادية فهي عبارة خشبة تعلق بها وسيلة الإضاءة.

ج. رمزية القوس

رغم استعماله منذ عهد البابليين وشيوعه مطلع القرون الوسطى بأوربا، إلا أن الحضارة الإسلامية بتنويع نماذجه فرضته كعنصر أساسي في العمارة. لقد استخدم العارف المسلم القوس النصف دائري والمتعدي والمنكسر والمفصص والطولوني المعروف بأوربا بالقوس القوطي (Gothique)، والمغولي والرافد والبخاري.

لم يستعمل البناء المسلم القوس لميزاته التقنية فحسب بل لرمزيته أيضا، حتى صار لدى الجميع عنوانا لفن التعمير الإسلامي، (ألم يُسمي الغرب الزخارف التي بها منحنيات تشبه القوس بالأرابسك (arabesque).

للقوس في الغرب الإسلامي على الخصوص، دلالة الحظر (المنع والتحذير) وكأن القوس يشير إلى التحذير التالي: لا يسمح بالمرور أو الدخول إلاّ للساكن أو الغريب المرفق بأحد السكان. بجدر التنبيه هنا إلى أن شكل القوس وحجمه لهما دور في التحذير أو المنع.

الصورة (3) قوس متعد وحذوي يزيد ارتفاعه عن ستة أمتار، يشير إلى بداية منطقة سكنية. تنعدم الحوانيت بعد القوس

الصورة (4) مدخل درب السلسلة

أقدم حيّ بالمدينة العتيقة. تحتوي كل منازله على سكن الخدم (مصرية أو دويرة) وهو دليل على أن الدرب بُني لأعيان المرابطين.
كانت سلسلة حديدية تمنع مرور الدواب بوقت المقيل.
يشير السهم في أسفل الصورة لمساحة خصصت لوضع مواد البناء قبل نقلها إلى الدار المعنية بالترميم.

الصورة (5) مدخل درب السلسلة

نموذج آخر لمنزل من الأعيان
يمنع القوس الغريب من الاقتراب من عتبة البيت.
لاحظ: انعدام القوس بعتبة البيت
رأس الطفل بأسفل الصورة، هو بمدخل دويرة الخدم.

الصورة (6) سقيفة مقوسة: إشارة إلى درب غير نافذ، لا ينبغي للغريب عن الحي استعماله : إنه بحومة

الصور (7) سقيفة غير مقوسة: يسمح للمارة من استعماله دون حرج السقيفة: استعمال ذكي وناجع للفضاءات العلوية بعد استئذان المحتسبو القائمين على متابعة الخِطة

د. وحدة التجاور

مما يؤكد وحدة التجاور أن استغلال الأراضي يسير وفق خِطة عمرانية مضبوطة، جعلت من وحدة التجاور النقطة المحورية لتهيئة عمرانية مثلى داخل الحي السكني. تتألف وحدة التجاور من ثلاث منازل. عددها يحدد هيكلة الدرب أو جزء منه. إن الروابط المستحدثة داخل كل وحدة، جعلت مكانة الجار أقوى من مكانة الأقارب، وذلك طبقا لما ورد في الحديث النبوي الشريف: "لا زال جبريل يوصيني بالجار حتى ضننت أنه سيورثه."

ساهم هذا الموقف في اضمحلال تدريجي للنعرات العشائرية، وبالتالي مهّدت السبل لبناء مجتمع حضري.
إن تحديد عتبات المنازل على شكل مثلث جعل أبواب هذه المنازل غير متقابلة، ومع هذا يسرت هذه الطريقة اتصال النسوة فيما بينهن نتيجة ضيق المسالك.

الخاتمة

يعدّ النسيج العمراني لمدينة تلمسان نتاج تفاعل جيد بين مختلف الوظائف الموكلة لها. فالعلاقات المستحدثة بين مختلف العناصر المستعملة لهذا النسيج، تعبر عن رغبة أكيدة في العيش الجماعي.
يساهم هذا النسيج بقسط وافر في نشأة وتطوير المجتمع المدني. وما المدينة في هيكلتها العامة إلا استجابة لمطالب اجتماعية وثقافية وعقائدية واقتصادية للحياة اليومية داخل نسيج مدني.
فإن المدينة من هذا المنظور تعبير خاص يجسد المستوى الحضاري للجماعة القاطنة بها. أما هيكلتها العامة فهي في تحديث مستمر حتى تفي بمتطلبات السكان. المدينة كائن حيّ يسعى دوما على تحسين الأداء قصد تحقيق الانسجام والتواؤم.

المراجع

1 – تأليف جماعي(1976). المدينة الإسلامية. جامعة كامبردج، لندن.
2 - Dhina, Atallah)1984(. Les états de l’occident musulmans aux XIIème, XIVème et XVème siècles. éd. ENAL, Alger.
3 - Lecoq, André (1940). Tlemcen ville Française, Tanger.